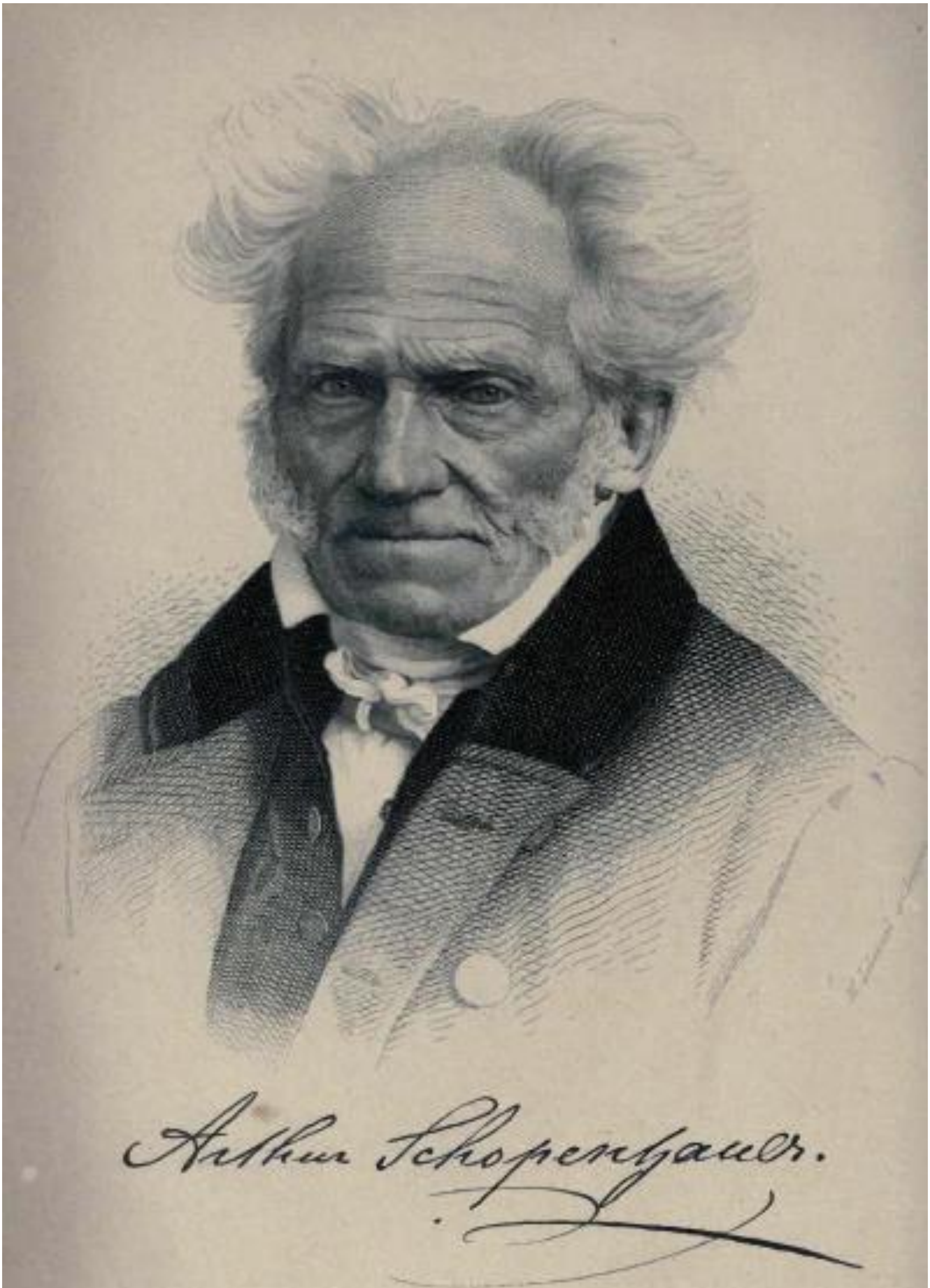
Arthur Schopenhauer.

مقالة شوبنهاور

«عن النساء»

إعداد نسخة:

Pdf

توفيق الطيفور

ترجمة: أحمد زياد

https://www.facebook.com/notes/philosophical-horizons-%D8%A2%D9%81%D8%A7%D9%82-%D9%81%D9%84%D8%B3%D9%81%D9%8A%D9%91%D8%A9/%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84%D8%A9-%D8%B4%D9%88%D8%A8%D9%86%D9%87%D8%A7%D9%88%D8%B1-%D8%B9%D9%86-

%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B3%D8%A7%D8%A1-%D8%AA%D8%B1%D8%AC%D9%85%D8%A9-%D8%A3%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%B2%D9%8A%D8%A7%D8%AF/1780797448626278/

تخبرنا النظرة الأولى إلى هيئة الأنثى أنها ليست مهيئة لأي عمل عظيم، سواءٌ أكان عقليًّا أم بدنيًّا. فهي تتجشم إثم الحياة ليس بالعمل إنما بالمعاناة: إنها تدفع الدين بآلام الإنجاب والاعتناء بالطفل والامتثال لزوجها الذي ينبغي أن تكون معه رفيقة صبورة وجذلة. المعاناة المبرحة والمباهج الشديدة ومظاهر القوة – كلها ليست قَدَرًا واجبًا عليها، إنما على حياتها أن تجري رويدًا وبنحو أكثر أناةً وأقل اعتبارًا من حياة الرجل، بغضّ النظر عن كونها أساسًا أكثر أو أقل سعادةً.

النساء مُكَيّفات ليكنّ ممرضاتنا ومربياتنا في طفولتنا المبكرة نظرًا إلى حقيقة أنهن في ذواتهن صبيانيّات وحمقاوات وقصيرات النظر، وبإيجاز القول: هن طفلات بالغات طوال حياتهن، أقصد نوعًا ما من مرحلة وسيطة بين الطفل

والرجل، الذي يمثّل إنسانًا بحقيق المعنى. وحسبك أن تنظر مثلًا كيف لفتاة أن تلاعب طفلًا أيامًا دونما انقطاع وتراقصه وتغني له، ومن ثَم تخيّل ما سيفعله رجل يتحلى بأفضل طوية في العالم إن كان مكان الفتاة!

وضعت الطبيعة في اعتبارها مع الفتيات ما يسمى بالمعنى الدراماتورجي أثر المسرح (Stage-effect) أو الإحساس. فهي قد منحتهن لسنوات قليلات جمالًا وافرًا وفتنة واكتمالًا على حساب باقي حياتهن. وما فعلت الطبيعة ذلك إلا كي تتيح لهن في إبان هذه السنوات القليلات أن يستولين على مخيلة الرجل إلى حدٍّ يصير فيه الرجل مدفوعًا بشكل ما إلى أخذ شرف الاعتناء بهن على عاتقه طوال الحياة. وهذه خطوة يلوح أنه لن يجد لها ضمانًا ملائمًا بما فيه الكفاية إذا ما تفكر فيها عقليًّا فقط. وعليه، فقد منحت الطبيعة النساء، كما فعلت مع مخلوقاتها طرًّا، الأسلحة والوسائل اللازمة لصوْن وجودهن فقط ما دمن

محتاجات إليها، وهذه سبيلٌ تواصل فيها الطبيعة بخلها الشديد المعتاد.

إذ تمامًا مثلما تفقد أنثى النمل جناحيها بعد عملية التلقيح حيث يصبحان زائدين على حاجتها، وخطرًا على ما يتعلق بالحِضانة[5] – فإن المرأة عمومًا تفقد جمالها بعد ولادة طفل أو طفلين، ومن المحتمل أن هذا نتيجة للسبب عينه.

لذا نجد أن الشابات في دخائلهن يعتبرن شؤون العمل أو المنزل ذات أهمية ثانوية، وحقيقةً مجرد قطعة من الهزل. الحب ولفت الإعجاب وكل ما يتصل بهما كالثياب ومستحضرات التجميل والرقص وغير ذلك: هذه الأمور فحسب هي ما يعتبرنها صنعتهن الوحيدة الجادة.

كلما كان الشيء أشرف وأكثر كمالًا، تأخّر وصوله إلى مرحلة النّضج وكان أبطأ. فالرجل بالكاد يبلغ مرحلة نضج مَلَكته العقلية وقواه الفكرية قبل سن الثامنة والعشرين، أما المرأة فتبلغها في سن الثامنة عشرة. لكنها عند هذه الأخيرة،

نتيجة لذلك، مَلَكة عقلية بالغة الغثاثة ومحدودة. ولذا فهن يبقين طفلات طوال حياتهن، ولا يبصرن إلا ما يقع قريبًا منهن، ويتشبثن بالحاضر، ويحسبن مظهر الأشياء واقعًا، ويفضلن السفاسف على أشد الشؤون عظمةً. وعليه فالرجل بحكم ملكته العقلية لا يحيا كالحيوان في الحاضر لا أكثر، إنما يستجلي الماضي والمستقبل ويضعهما في الاعتبار: وفي هذا كله منبع بصيرته (بُعد النظر) ويقظته واهتمامه وقلقه واضطرابه المألوف. عاقبةً لمَلَكة المرأة العقلية الأشد ضعفًا، فإن نصيبها في حسنات وسيئات ما يستتبعه هذا أقل. بالأحرى إنها حسيرة (قصيرة النظر) عقليًا، إذ لئن كان فهمها الحدسي يبصر بجلاء ما يثوي قريبًا، فإنها تحوز مجال رؤية ضيقًا تخرج عنه الموضوعات القصيّة. من هنا، فكل ما هو غائب أو من أمر الماضي أو ماثل في المستقبل، يؤثر في النساء بدرجة أدنى من الرجال، ومن ذلك يبرز الميل إلى التبذير الذي يظهر في النساء على نحو متكرر أكثر من

الرجال، وأحيانًا ما يقترب إلى الجنون. النساء مبذّرات بحكم الطبيعة. في بواطنهن، تتخيل النساء أن الرجال إنما وُلِدوا كي يجنوا المال، بينما هن معنيّات بإنفاقه، إن أمكن ذلك ففي حياة الرجل، ولكن سيكون ذلك بعد موته أيًّا ما كانت الحال. وما يقوّي اعتقادهن هذا واقعة أن الرجال يسلّمونهن ما يجنون من أجل تدبير المنزل. مهما استتبع هذا من مساوئ، فما زالت توجد نقطة جيدة، أعني أن الحاضر مستحوذ على المرأة أكثر من الرجل، ولذا فهي ستلتذ به على نحو أفضل فيما لو كان حاضرًا يُطاق. ينبع من هذا الجذل المميِّز للمرأة الذي يجعلها ملائمة للترويح عن الرجل الذي أثقلت عليه الاهتمامات.

من الخطأ قطعًا أن تشرك النساء في مناقشة مسائل صعبة ودقيقة، بعدما اعتاد قدامى الألمان ذلك. إذ إن إدراكهن للأمور مختلف كفايةً عن الرجل، وبخاصة مع تفضيلهن شق أقصر الطرق لبلوغ مرامهن، ومع مداومة وضع ما يثوي

قريبًا منهن نصب أعينهن في العموم. غير أن مجرد كون شيء ما واقعًا أمام ناظر الرجال يجعلهم يتغاضون عنه عادةً، ومن ثم في هذه الحال يتحتم عليهم أن يؤوبوا إليه عساهم يستردون النظرة الأقرب والأبسط عن هذا الشيء. فضلًا عن هذا، فالنساء بلا ريب أكثر واقعية من الرجال فلا يبصرن في الأشياء أكثر مما يوجد فيها فعلًا، في حين أن الرجال عندما تثار انفعالاتهم فمن السهل أن يبالغوا فيما هو حاضرٌ أو يسبغون عليه شيئًا متخيَّلا.

في مكنتنا أن نتعقب من هذا المصدر عينه واقعة أن النساء يُظهرن إشفاقًا أكثر، ومن ثم لطفًا عَطُوفًا وشفقةً إزاء التعيس مقارنة بما يفعل الرجال. ومن ناحية أخرى، فإنهن أدنى من الرجال في مسألة العدالة والإخلاص والضمير اليقظ. إذ تبعًا لقصور ملكتهن العقلية، فما هو حاضر ومُدرَك حدسيًّا (بالبداهة) وواقعي مباشرةً، يمارس عليهن

قوة يندر أن تضطلع الأفكار المجردة والحقائق العامة والقرارات الراسخة، وعمومًا تدبّر الماضي والمستقبل، الغائب والقصي – بالكثير إزاءها. وهن لهذا يمتلكن حتمًا الشيء الأولي والأساسي للفضيلة، لكنهن من ناحية أخرى يفتقرن إلى الشيء الثانوي الذي غالبًا ما يكون وسيلة ضرورية لها. يمكن مقارنتهن في هذا الصدد بمتعضٍّ ما يمتلك كبدًا فعلًا، غير أنه يفتقر إلى الحويصلة الصفراوية. هنا أحيل على مقالتي' في أصل الأخلاق'، الصفحة السابعة عشرة. وعلى وفق ما قلنا سابقًا، نلفى أن الظلم هو العيب الرئيس في طبع النساء. ينجم هذا أساسًا مما ذكرناه أعلاه عن الافتقار إلى العقلانية والتفكير الانعكاسي، كما يمكن أن تعززه واقعة أن النساء باعتبارهن الأضعف، فهن بحكم الطبيعة لا يعتمدن على القوة إنما على المكر، ومن هنا منشأ دهائهن الغريزي وميلهن المتأصل إلى سرد الأكاذيب. فكما نرى أن الأسود مزوّدة بمخالبَ وأسنان، والفِيَلة والخنازير

بأنياب، والثيران بقرون، والحَبّار بسائله الحِبري الذي يسوّد المياه، فإن الطبيعة قد منحتِ النساء من أجل صونهن وحمايتهن النفاق أو التستر تحت مظاهر كاذبة.

وكل القوة التي منحتها الطبيعة للرجال بهيئتها البدنية والعقلية، أُسبِغَت على النساء بهذا الشكل. إذًا، هذا –أن تنافق المرأة– أمر من فطرتها وصفة مميِّزة عند الغبية بقدر ما هي كذلك عند الذكية. وعليه، فأن تستغل المرأة هذا في كل مناسبة هو أمر طبيعي بالنسبة إليها كما هو إلى الحيوانات التي ألمعنا إليها إذ تفيد من أسلحتها عندما تُعرض للهجوم، وهي إلى حد ما تشعر أنها هنا إنما تمارس حقّها. ولذلك فالمرأة الصادقة تمامًا والبعيدة عن التكلف لربما هي ضرب من المستحيل. ولهذا السبب عينه تكشف النساء بسهولة عن النفاق في الآخرين، فليس من المستحسن إذًا أن تحاول ذلك عليهن. ومن هذا العيب الجوهري الذي ذَكَرتُ مع كل ما ينطوي عليه، يُبعث

بالزّور والخيانة والغدر والجُحود وهلمّ جرًّا. وكثيرًا بأضعاف ما تحلف النساء أيمانًا كاذبة مقارنة بالرجال، وعمومًا عسانا نسأل إن كان عليهن أن يؤدّين الأيمان [أصلًا]. فمن حينٍ إلى آخر، نلفى حالات متكررة –في كل مكان– عن النساء اللواتي يُرِدْنَ أشياءَ دونما مقابل، حيث يسلبنها ويجيّبنها.

لقد أولَتِ الطبيعة الرجال ذوي الشباب والأقوياء والوسيمين مهمة الاعتناء بتكاثر الجنس البشري، عسى ألا ينحطّ هذا النوع. هنا تثوي إرادة الطبيعة الراسخة وانفعالات النساء إنما هي التعبير عنها. لقد تفوّق هذا القانون على القوانين الأخرى كافة في القوة والقِدَم. فالويل إذًا لذاك الذي يقيم حقوقًا ومصالح تعترض طريقه، إذا مهما قال أو فعل، سيُبَاد بلا رحمة في أول مناسبة ذي اعتبار. إذ إنّ درس النساء الأخلاقي، الخفي وغير المصوغ، بل اللا واعي مع كونه فطريًّا، هو كالآتي:' لدينا ما يبرّر خداعنا

أولئك الذين يخيّل إليهم أنهم حازوا حقوقًا على النوع لأنهم يُزجون الاهتمام بنا – وأعني بذلك الفرد. التأسيس، وبالتبعية، رفاهية النوع قد وُكِلت إلينا وعُهدت رعايتنا بها عبر الجيل اللاحق كوسط يتولّد منا. سنؤدّي واجبنا هذا وحيٌّ هو ضميرنا'. ولكن النساء لسن واعيات على أي حال بهذا المبدأ السامي مجردًا، إنما يعينه عيانيًّا، وليس لهذا المبدأ في جَعبتهن تعبيرًا سوى مجرى الفعل متى ما حانت الفرصة لذلك. وعيهن هنا أقل تشوشًا مما نفترض، فهن في أشد خبايا قلوبهن ظلامًا يشعرن أنهن بخرق الواجب نحو الفرد، فمن الأجدر بأضعاف أن يؤدينه نحو النوع الذي تعظم حقوقه [على الفرد] عِظَمًا لا يحده شيء. تجد نقاشًا مفصلًا أكثر عن هذا الموضوع في المجلد الثاني، الفصل الرابع والأربعين من عملي الرئيس.

لأن النساء –في الأساس– لا يوجدن إلا من أجل تناسل العرق الذي يُحدَّد مصيرهن به، إنهن يعشن عمومًا في النوع

أكثر من عيشهن في الأفراد. في الباطن، يأخذن شؤون النوع على محمل الجد أكثر من شؤون الأفراد. يمنح هذا كامل طبيعتهن وتصرفهن رعونة معينة، وفي العموم سلوكًا يختلف عما عند الرجل ألبته، كما يتمخض عن الشقاق والتنافر الذي يتردد كثيرًا ويكاد يكون أمرًا اعتياديًّا في الزواج.

من الطبيعي أن تكون اللا مبالاة المحض هي الشعور الكائن بين الرجال، أما بين النساء فالطبيعي هو العداء. وقد يرجع هذا إلى حقيقة أن نطاق الغَيْرة المهنية(*) في حال الرجال لا يتعدى شؤون الحياة اليومية، أما في حال النساء فتراه يحتوي الجنس بأكمله، ما دمن يمتلكن نوعًا واحدًا من العمل. حتى عندما يتقابلن في الطريق، فإنهن ينظرن إلى بعضهن البعض كالغويلفيّين والغيبلينيّين[6]. وعلاوة على ذلك، في لحظة التعارف الأولى بين امرأتين، فإنهما تُظهِران مزيدًا من الجفاء والنفاق مقارنةً بحال رجلين في الموقف

عينه. وإلى هذا يرجع واقع أن تبادل الإطراءات بين امرأتين أمر يفوق كثيرًا في سخافته الحال بين رجلين. مجددًا، في حين أن الرجل –كقاعدةٍ– سيخاطب حتى مَن يدنوه منزلةً بشعور معين من الاعتبار والإنسانية، فمن غير المطاق رؤية الفخر والازدراء

اللذين ستتصرف بهما سيدةٌ ذات مكانة إزاء سيدة أخرى تدنوها مكانةً (لا تعمل في خدمتها) عندما تتوجّه إليها بالحديث. وقد يكون مردّ ذلك إلى أن الاختلافات في المكانة بين النساء أمر عابرٌ إلى حد كبير مقارنةً بنا، وقد تُبَدّل وتُلغى على نحو أسرع. إذ بينما في حالنا تجد مئة شيء يقلب المقياس، فليس لدى النساء سوى شيء واحد يقرر ذلك: أعني أي رجل هذا الذي خطبن ودّه. وواقعة أخرى أنهن تبعًا لطبيعة صنعتهن الأحادية الجانب، فإنهن يعقدن صلات أقرب إلى بعضهن بعضًا مقارنةً بالرجال، ولذا يسعين جاهدات إلى توكيد هذه الاختلافات الطبقية.

عقل الذّكر وحده، باندفاعته الجنسية التي تظلّله كالغيام، مَن يقدر على مناداة هذا الجنس الضئيل الحجم وضيّق المنكبين وعريض الوركين وقصير القدمين باسم الجنس اللطيف؛ بهذه الاندفاعة يثوي جمال هذا الجنس طرًّا. ومن الموفق أكثر أيضًا لهذا الجنس الأنثوي أن يُدعى' اللا جمالي'. إنهن صدقًا وحقًّا عادمات أي جنوح وحساسية تجاه الموسيقا أو الشعر أو الفنون التشكيلية، وإن تظاهرن وادَّعين إعجابهنّ بمثل هذه الأشياء، فهذا مجرد تقليد في سبيل رغبتهن التوّاقة إلى إثارة الرضاء. ولذا هن عاجزات عن إلقاء أي بالٍ موضوعي بحت نحو أي شيء، ويلوح لي أن الآتي هو سبب ذلك. يطمح الرجل من كل شيء إلى تضلّع مباشر إما بفهمه وإما بالسيطرة عليه. أما المرأة فمقودة دائمًا في كل مكان إلى مجرد تضلّع غير مباشر بمساعدة الرجل، هذا الذي تتوجه إليه كامل براعتها المباشرة(*). ولذا يثوي الأمر في طبيعة النساء أن يعتبرن الأشياء كافة

محض سبيل يظفرن بها بالرجل، ودائمًا ما يكون اهتمامهن بأي شيء آخر متصنَّعًا فقط، طريقًا مواربًا فحسب. وهكذا حتى جان جاك روسو قال:" ليس لدى النساء عمومًا إعجاب بأي فن، ولسن محكّمات في أيٍّ من الفنون، وهن عادمات أي عبقرية(**) " (رسالة إلى دالمبير، الملاحظة العشرون).

كلّ من خطا وراء المظاهر سيلاحظ هذا أيضًا. لا نحتاج إلى سوى مراقبة اتجاه وطبيعة انتباههن في حفلة موسيقية وأوبرا ومسرحية، ورؤية –على سبيل المثال– السذاجة الطفولية التي يواصلنها في ثرثراتهن أثناء أروع المقاطع في الألحان الموسيقية من أعظم التُّحف. وإن كان حقًّا أن اليونانيين لم يأذنوا للنساء بالذهاب إلى المسرحيات، فقد كانوا على حق، إذ في الأقل سيكون واحدنا قادرًا على سماع شيء مما يعرض على مسارحهم. سيكون ملائمًا في

أزماننا هذه أن نُتبِع قول «لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ» (***) بقول [لتصمت نساؤكم في المسارح]. أو نستبدلها بها ونضعها بأحرف كبيرة على ستارة في المسرح. ليس في مكنتنا أن نتوقع أي شيء آخر من النساء إن فكّرنا مليًّا في أن أبرز العقول من جنسهن بأكمله ما قدر قطّ على تحقيق إنجاز وحيد ورائع حقًّا وأصيل وبديع في الفنون الجميلة، أو على إبداع عمل إلى هذا العالم ذي قيمة دائمة في أي مكان. وهذا أكثر ما يلفت النظر فيما يتعلق بالتصوير، إذ إن تكنيك هذا الأخير –مهما يكن من أمر– ملائم لهن بالقدر عينه كما للرجال، ولذا يسعين وراءه بدأَب. مع ذلك، فإنهن عاجزات عن أن يتباهين بأي لوحة عظيمة، وما هذا براجع إلا إلى أنهن عادمات موضوعية الذهن ألبتة: أي الشيء ذاته الذي يمثل أكثر ما يقتضيه التصوير مباشرةً. أينما يذهبن، يبقين في الذاتي. تمشيًا مع هذا، ثمّة واقع أن

المرأة العامية ليست حتى بذات حساسية تجاه التصوير بصحيح المعنى، فالطبيعة لا

تصنع القفزات، في كتابه

Examen de ingenious para las sciencias

الذي ظلّ شهيرًا ثلاثمئة سنة، ينفي وارته عن النساء القدرات الأسمى كافة. ويقول في المقدمة (صـ6): «إن التنظيم الطبيعي الذي تحوزه المرأة في دماغها ليس ملائمًا لكثير فكرٍ أو حتى كثير تعلم... بقدر ما تلتزم بما تمليه جبلَّتها، كل ضرب أدب أو معرفة أمر بغيض بالنسبة إلى ذهنها.

النساء (بحكم ما يميّز جنسهنّ من برودة ورطوبة) عاجزات عن أن يحظين بفكر معمّق، ونراهن فقط يتحدثن بمظهر معيّن من البراعة عن توافه الأمور وبسيطها وهلم جرًّا. لن تقلب الاستثناءات الفردية والجزئية المسألة، إذ إن تكلمنا عمومًا لقلنا إن النساء هنّ الأكثر كمالًا واستعصاءً. ومع هذا

التدبير غير المعقول قطعًا حيث يشاركن به الرجل مكانته ولقبه، فإنهن يلازمن حفزه في مطمحه الخسيس. علاوة على ذلك، وبحكم الصفة نفسها، فإن هيمنتهن والسبيل التي يحددن الزيّ السائد بها خراب للمجتمع الحديث. بصدد الأمر الأول، فينبغي أن يرشدنا قول نابليون I:

‘‘النساء في الحياة بلا منزلة’’

Les femmes n'ont pas de rang

أما بالنسبة إلى الباقي، فيقول نيقولا شامفور بحق تمامًا: "إنهن مجبولات كي يتعاملن مع مواطن ضعفنا وحمقنا، لا مع مَلَكتنا العقلية. ليس بين النساء والرجال سوى انسجام سطحي، وانسجام بالغ الضآلة في الذهن والطوية والطبع".

إنهنّ الجنس الأدنى، الجنس الذي يحلّ ثانيًا في أي صدد.

لذا ينبغي لنا أن نعامل ضعفهن بأناة، أما أن نظهر لهن توقيرًا واحترامًا مفرطًا فأمر سخيف ويحطّ من شأننا في أعينهن. عندما قسمت الطبيعة الجنس البشري إلى نصفين، فإنها لم تجعل هذا الانقسام كائنًا عبر المنتصف بالضبط. وعلى الرغم من كل قطبية، فالاختلاف بين القطبين الإيجابي والسلبي ليس نوعيًّا محضًا، بل كميًّا أيضًا. هكذا نظر القدماء والأعراق الشرقية إلى المرأة، وقد كانت المكانة الملائمة لها تبعًا لهذا معروفةً لهم بحق أكثر منا بكثير مع ما نحوزه من تودد فرنسي قديم تجاه النساء وتوقير سخيف لهن، فهذه هي ذروة الحمق المسيحي الجرماني. لم يُفِد ذلك إلا في جعل النساء أكثر غطرسة وتهورًا، بحيث يذكرنا هذا أحيانًا بالقرود المقدسة في بنارس (Benares) التي تدرك قداستها وحصانتها فتظن أنها حرة لفعل أي شيء وكل شيء.

تجد المرأة نفسها في الغرب، وبخاصّة ما يدعى' السيدة'، في منزلة زائفة ، إذ إن المرأة –التي يدعوها القدماء بحقّ الجنس الأدنى– لا تستحق أن تكون موضوع احترامنا وتوقيرنا ألبتة، ولا أن تسمو برأسها أعلى من الرجال وتحوز حقوقًا مساوية لحقوقه. وهنحنذا نشهد جيدًا كفايةً عواقب هذه المنزلة الزائفة. لذا سيكون من المحبب –حتى في أوربا– لهذا الرقم الثاني في الجنس البشري أن يخصص له مجددًا مكانه الطبيعي، وأن ينتهي هذا الهراء [المدعو] سيدة، الذي لا تهزأ به آسيا قاطبة وحدها، إنما كانت اليونان وروما ستسخران منه أيضًا. من وجهة نظر اجتماعية ومدنية وسياسية، ستكون عواقب هذا ذات نفع لا حد له. وكحقيقة بديهية بلا ضرورة تذكر، فيجب على القانون السالي أن لا يكون لازمًا. السيدة الأوربية الملائمة هي كيان كان عليه أن لا يوجد ألبتة، فعلى النقيض من ذلك، ينبغي أن تكون ثمة ربات بيت وفتيات يأملن أن

يكن كذلك، وبالتالي أن يربّين لا على الغطرسة، بل على الألفة والإذعان. بمجرد أن أوربا احتوت على السيدات، صارت النساء من الطبقات الأدنى، وبالتالي الأغلبية العظمى من هذا الجنس، أكثر تعاسةً من النساء في الشرق إلى حد بعيد. وهذا اللورد بايرون يقول: «فكرة حال النساء في ظل الإغريقيين القدامى – مناسبة بما فيه الكفاية. [أما] حال الحاضر، أَثَارة من بربرية العصور الفروسية والإقطاعية – زائفة وغير طبيعية. لا بد لهن أن يعنين بالمنزل –ويُغَذّين ويُلَبّسن جيدًا– لا أن ينخرطن في المجتمع. إلى ذلك، أن يُعَلّمن جيدًا في الدين –لا أن يقرأن في الشعر أو السياسة– ولا شيء سوى كتب التقوى وفن الطبخ. الموسيقا والرسم والرقص، والنّزر أيضًا من البستنة والفلاحة في بعض الأحيان. لقد رأيتهن يصلحن الطرق في إپيروس بنجاح حسن. لِمَ لا، إلى جانب ذلك تيبيس الكلأ والحَلْب.

في قارتنا الأحادية الزواج، أن تتزوج يعني أن تنصّف حقوق المرء وتضاعف واجباته. مع ذلك، فلئن منحت القوانين النساء حقوقًا مساوية للرجال، كان ينبغي لها أن تهبهنّ مَلَكة الرجال العقلية. من ناحية أخرى، كلما جاوزت الحقوق والتشريفات التي تمنحها القوانين للنساء الوضع الطبيعي، قلّ القدر الذي تشارك فيه النساء الأخريات هذه الامتيازات، وعُدِم الباقي منهن حقوقًا طبيعيةً بقدر ما مُنحت النساء ذوات الامتياز حقوقًا زيادة. إذ مع هذا الوضع المستحسن على نحو غير سوي الذي تأدّى للنساء بمؤسسة الزواج الأحادي وقوانين الزواج المرافقة لها، والذي صارت تُعتبر المرأة فيه المساوي المطلق للرجل، في حين أنها ليست كذلك بأي معنًى – غالبًا ما صار ذوو الحصافة والحذر من الرجال يترددون في بذل تضحية بهذه الجسامة وعقد اتفاق جدّ ظالم كهذا«*». ولذا بينما تلفى المرأة مَعُولة بين الأعراق التعددية الزواج، فإن عدد النساء

المتزوجات بين الأعراق الأحادية الزواج محدود وكثير من النساء الأخريات يُترك بلا عَوْل. في الطبقات العليا، يحيين كتريكات (كبيرات في السن) عادمات أي نفع، أما في الطبقات الدنيا، فإما أن يمارسن عملًا مجهدًا وغير ملائم، وإما أن يصرن مومسات يعشن حياةً مغمومة بقدر ما هي ساقطة، لكنهن في مثل هذه الظروف يصرن ضرورةً لرضاء الجنس الذكري. وهن لهذا يغدون معروفات علنًا أنهن طبقة أو من أهل مهنة غرضها الخاص إنما أن يحفظن من الإغواء هؤلاء النسوة اللاتي فضّلهن الحظ ووجدن أزواجًا أو يأملن ذلك. يوجد في لندن وحدها ثمانون ألف امرأة من هذه الطبقة. فما هؤلاء النسوة إذًا سوى أنهن صرن أكثر الخاسرين إفزاعًا عبر مؤسسة الزواج الأحادي، تضحيات بشرية فعلية على مذبح هذا الزواج؟ كل هؤلاء النساء المعدَمات جدًّا هن المعادل للسيدة الأوربية بخُيلائها وتعجرفها. ولذا فتعددية الزواج، بالنسبة إلى الجنس الأنثوي

إمّا أُخِذ باعتباره كلًّا، منفعة حقيقية. من جهة أخرى، فما من سبب معقول يمكن أن يسوغ منع الرجل من التقدم إلى زوجة ثانية عندما تعاني زوجته الأولى من مرض مزمن أو تكون عاقرًا أو صارت طاعنة في السن شيئًا فشيئًا. يبدو بالتحديد أن التخلص من مثل هذا الزواج الأحادي المنافي للطبيعة إنما هو ما يجنيه العديد من معتنقي المورمونية. إلى هذا، فإن منح المرأة حقوقًا غير طبيعية فرض عليها كذلك واجبات منافية للطبيعة تجعلها تعيسة إن خرقتها. وبذا فقد صيّرت اعتبارات المكانة أو الموارد المالية الزواجَ لعديد من الرجال أمرًا غير مناسب، إلا ربما إن صاحبته ظروف ممتازة. وسيريد بعد ذلك أن يحصل على امرأة من اختياره وفي ظل ظروف مختلفة ستضع مصيرها ومصير الأولاد على أساس ثابت. والآن حتى لو كانت هذه الظروف جدّ منصِفة ومعقولة وملائمة للحال، وأظهرت المرأة القبول بعدم إصرارها على الحقوق غير المتكافئة التي لا يقدمها سوى

الزواج، فإن سمعتها لذلك ستسوء إلى حد ما، فالزواج أساس المجتمع المدني، وعليها إذ ذاك أن تحيا حياة ملؤها الحزن. لأننا، بما هي عليه طبيعتنا البشرية، نربط آراء الآخرين بقيمة مبالغ فيها تمامًا. إن لم تُظهر المرأة القبول، فإنها ستخاطر إما بالزواج من رجل تبغضه وإما ستذبل لتصير تريكةً، فالوقت الذي يكون الرجل في إبّانه مستعدًّا كي يحيطك باهتمامه وقت جد محدود.

فيما يتعلق بهذا الجانب من مؤسستنا الأحادية الزواج، فمقالة طوماسيوس العميقة عن التسرّي جديرة بالقراءة. نرى فيها أنه من بين الشعوب المثقفة كافة عبر الأزمان طرًّا إلى الإصلاح اللوثري، كان التسرّي مؤسسة مشروعة، بل كان في الواقع إلى حد ما معترفًا به قانونيًّا، بلا إلحاقه بالعار. من هذا الاعتبار، فقد دمره الإصلاح اللوثري فقط إذ أدرك أن في إلغائه وسيلة أخرى يبرر بها زواج الإكليروس، وعندئذ لم يستطع الجانب الكاثوليكي أن يتخلف عن ذلك.

ليست تعددية الزواج مسألة خلاف ألبتة، إنما الأخلق أن تؤخذ باعتبارها واقعة يواجهها المرء في كل مكان. تنظيمها فقط هو المشكلة. إذ أين يوجد أي أحادي زواج حقيقي؟ إننا جميعًا نعيش في تعددية زواج أيًّا ما كان لوقت ما، لكننا في غالب الحالات نفعل ذلك دائمًا. وبناءً على ذلك، مثلما يحتاج كل رجل إلى عديد نساء، فما من شيء أعدل من أن يكون المجال مفتوحًا له، وهذا حقّ عليه فعلًا، كي يعول نساء عديدات. بهذه السبيل، تعود المرأة أيضًا إلى النقطة اللائقة والطبيعية باعتبارها كائنًا ثانويًّا، وتزول السيدة من العالم: وحش الحضارة الأوربية والحمق المسيحي-الجرماني، مع مطالبها السخيفة بالاحترام والتبجيل. لا يوجد إذًا سوى نساء، وبالطبع لسن تلكم النساء التعيسات اللاتي تغص بهن أوربا الآن. المورمونيون على حق.

في الهندوستان، ما من امرأة مستقلة، إنما كل واحدة تكون تحت وصاية الأب أو الزوج أو الأخ أو الابن، تبعًا لقانون مانو[11]، الفصل الخامس، البند 148. أن تحرق الأرامل أنفسهن على جثامين أزواجهن[12] هو أمر مروع بالطبع، أما أن يبددن على عشاقهن الثروة التي جناها الزوج عبر عمل شاق متواصل في حياته، معتقدًا في ذلك أنه إنما يعمل من أجل أطفاله، فهو أمر مروع كذلك. المحظوظ والسعيد هو من لزم الطريق الوسط.

كما الأمر عند الحيوانات، فعند الإنسان كذلك، يكون الحب الأموي الأولي غريزيًّا خالصًا، ولذا ينتهي مع عجز الأطفال الجسدي. وفي مكانه، ينبغي أن يظهر واحد يرتكز على العادة والتعقل، غير أنه يفشل غالبًا في الظهور، بخاصة عندما لا تحب الأمُّ الأبَ. حب الأب لأبنائه هو من نوع مختلف وأكثر رسوخًا. إنه يستند إلى إدراكه فيهم ثانيةً ذاته الأعمق، ولذا فهو ذو جذر ميتافيزيقي.

عند الأعراق القديمة والحديثة كافة تقريبًا على الأرض، وحتى عند الهوتِنتوت[13] (الخويخوئيين)(*)، فلا يرث الملكية إلا الأبناء الذكور، وأوربا وحدها هي التي عدلت عن مثل هذا الأمر، أما النبلاء فيها فلمّا يفعلوا ذلك.

الملكية التي حِيزَت بعمل الرجال الشاق والمستمر تُحوّل إلى أيدي النساء اللاتي بحمقهن سيستنفدنها أو يبددنها في وقت قصير. إن هذه لشناعة جسيمة بقدر ما هي متكررة، وينبغي أن تُدرأ بتقييد حق المرأة بالإرث. يلوح أن أمثل تدبير سيكون للنساء، سواءٌ أكن أرامل أم بنات، أن يرثن دائمًا معاشًا مدى الحياة مؤمَّنًا برهن، لا ملكًا عقاريًّا أو رأس مال، إلا إن لم يكن الأبناء الذكور موجودين ألبتة.

الرجال هم من يكسبون ويجنون الثروة والملكية، لا النساء، ولذا فالنساء لسن مخوّلات لحيازة هذه الثروة وهذه الملكية كاملتين، ولا هن قادرات على تدبيرهما. في أي حال، فلا ينبغي أن تترك الحرية للنساء ألبتة في

التصرف بملكيتهن الموروثة بحقيق المعنى، أقصد برأس المال والمنازل والعقار. إنهن في حاجة دائمة إلى وصيّ مرشد، ولذا فلا ينبغي لهن أيًّا ما كانت الحال أن يتسلمن الوصاية على الأطفال. غرور النساء، حتى لو كان دون غرور الرجال، سيئ لأنه دائر تمامًا حول الأشياء المادية، وحول جمالهن الخاص، ومن ثَم حول التبرج والعُجب والتباهي الرخيص، ومن هنا فالمجتمع هو المحيط الملائم لهن إلى أشد ما يكون ذلك. يجعلهن هذا نزّاعات إلى التبذير، وبخاصة مع مَلَكاتهن العقلية القاصرة، فهذا كاتب قديم قال:

'النساء مبذّرات بحكم الطبيعة'

يدور غرور الرجال غالبًا من ناحية أخرى حول الفضائل والخواص اللا مادية، مثال ذلك الفهم والعقل والتعلم والشجاعة، وما شابه ذلك.في السياسة، المجلد التاني صفحة 9 يوضح أرسطو أيّ مساوئ جسيمة برزت في

وجه الإسبرطيين من واقعة أنهم تنازلوا كثيرًا لنسائهم اللاتي امتلكن حق الإرث والمهر وحرية عظيمة واستقلالًا، وبأي نحو ساهم هذا كلّه بشكل كبير في تدهور إسبرطة. ألم يكن تأثير النساء النامي باستمرار في فرنسا من زمان لويس الثالث عشر مسؤولًا عن الفساد الذي حل تدريجيًّا في البلاط والحكومة وتمخض عن الثورة الأولى، فكانت عواقب هذا كل الاضطرابات اللاحقة؟ في الحالات كافة، فالمكانة الزائفة للجنس الأنثوي، تجد أشد أمارة على مثل هذه المكانة في مسألة السيدة لدينا، هي خلل أساسي في مجتمع الدولة. وبالانبعاث من باطن هذا الخلل، يتحتم أن ينتشر التأثير الخبيث إلى سائر الأجزاء.

أن المرأة معنيّة بحكم الطبيعة أن تذعن أمرٌ في وسعك أن تعرفه من واقعة أن كل امرأة توضع في حال من الاستقلالية التامة، وهو أمر منافٍ للطبيعة بالنسبة إليها، فإنها سرعان ما تعلّق نفسها برجل ما تبيح له أن يرشدها ويَسُوسها، وهذا

لأنها في حاجة إلى سيّد. إن كانت يافعة فسيكون سيّدها عشيقًا، وإن كانت عجوزًا فسيكون كاهن الاعتراف.